٢ - جـــوته

للأستاذ يوسف عبد المسيح ثروت

تابع ما نشر في العدد ٩٨٦

غوته يعتزل الحياة السياسية :

وأخيراً وصلوا إلى النتيجة المحتمة فقال : « كم أكون أحسن حالا وأهدأ بالا إذا أنا نسيت المشاجرات السياسية ووجهت قواي للعلوم والآداب التي لأجلها ولدت . وكل من يجعل حياته للوظيفة — إلا إذا كان أميراً سيدا — فهو إما أن يكون سخيفاً أو مغتصباً أو مجنوناً » . وبمرور الزمن أصابت غوته الهموم وهاجمته الغموم ، فأصبح مريضاً مرة أخرى وأراد التخلص من هذا الوضع الذي تردى فيه فقرر الفرار ناجياً بأهابه . وكان سبب ذلك — على ما نعلم — حادث غرام سقط في شبكته وذلك بتعلقه بالآنسة (فون شتاين) تلك الفتاة الغامضة الخفية ، التي لم تخلص من الجمال ولا من العاطفة بشيء يذكر . وقد كان لهذه الحادثة تأثير بالغ في حياته مدى جيـــل . ولو لم يفر بجلده لتحطمت حياته آنذاك ، وكانت إيطاليا في هذه المرة محط رحاله — تحت سماء بهيجة رائعة وفي وسط شعب جنوبي ، أما هـذه المرحلة من حياته فقد جعلها للتأمل في الفنون العظيمة ، وكانت بمثابة تجربة أغنى بمعانيها وألطف في مدلولها من حادثة غرام تظاهر فيها الفروسية الكاذبة التي شاءت الصدف أن تفرض عليه فرضاً في (وايمر)

إن إدراك معنى هذه التجربة صعب جدا ليس علينا وحسب بل حتى على المؤرخين الأدباء ودارسي غوته ، فهم لا يعرفون عنها شيئاً ، وهم يعترفون بذلك صراحة . ومن الخير علينا أن نشعر بما كان يشعر به من عواطف هي عواطف السعادة والتحرر والانعتاق ، والتي يعبر عنها بتعجب بأقواله « إنني ولدت ولادة ثانية ، ولادة حقيقية في اليوم الذي وصلت فيه روما » وأشعر « بشباب جديد ، شباب ثان ، إنسان جديد ، حياة جديدة » و « أشعر بتغيير في نخاع عظامي » . كل ذلك أظهره في رسائله التي بعث بها إلى (شارلوت فون شتاين) التي تركها بدون وداع

إن الشمول هو الغرض الأسامي الذي كان يسعى إليه جهد استطاعته ؛ والكلمة التي كانت لا تفارق شفاهه باستمرار في ذلك الوقت ، فالتاريخ الطبيعي والفن والأخلاق الخ أصبحت جميعاً منسجمة بنفسه ؛ وقد علق على ذلك بقوله « إني أشعر أن شمسي تسطع سطوعا باهرا » . أجل إن شمسه سطعت في تأملاته التي كان يخص بها الفنون القديمة ، وكان ينظر إليها لا بعتبار رجل يدري شيئاً بعيدا عن نفسه ، بل كان ذلك طبيعة نامية فيه ، فقال عن نفسه « إن الطفل المريض والضعيف سابقاً يمكن أن يتنفس الحرية بطلاقة مرة أخرى »

ماذا عنت إيطاليا بعبقريته

ليس في مكنتنا سوى تخمين العوامل التي أثرت في شخصيته.. ومن هذه العوامل علاقته بميزات البحر الأبيض المتوسط ، التي كان لدمه بها صلة وكان لهذا العامل (اللاألماني) فوائد تحريرية عليه ، فهي التي وسعت غريزة العظمة فيه ، وهذه الغريزة مستمدة من الغريزة التاريخية . وقد وضعت إيطاليا الصبغة النهائية على قسمات وجهه ، فأصبح الألماني المهذب ذا وجه ألماني بالنسبة إلى وطنه ، ووجه ثان هو أقرب إلى وجوه الوطنيين الخجولين والمتظاهرين بالحشمة ، وفي الوقت نفسه تغير فيه كل شيء فأصبح متزنا كاملا مكتفياً بذاته ، منطويا في قرارة ذاته على نفسه وقد اتصاله بالناس صمتا جدا ، ولم يبق من صلاته الصداقية القديمة شيء يذكر ، فشعر كل واحد من أصدقائه بالبرودة المتجمدة التي كانت تظاهر عليه

وقد علق أحد أصدقائه بعد أن قضى معه ليلة من الليالي بما يلي : « وشعرنا وكأننا نعيش في محيط بارد جدا وكانت السآمة تخيم علينا بثقلها ، وأضحت شهامته ملاطفة وحشمته ظاهرية . أما (شلر) الذي لم يكن يلحظه غوته في فضون إقامته في أول شتاء قضاه في (وايمر) فقد حدثنا عنه بقوله « كانت له موهبة تأسر الناس وتسحرهم سواء أكان ذلك في الأمور البسيطة أم الكبيرة ، على أنه كان يحتفظ بنفسه فوقهم ، وكان الناس يشعرون بوجوده بسرور بالغ ، ولكن وجوده كان كوجود الآلهة لا يعطي من نفسه »

ولكن عملا مناقيا اجترحه بعث الناس ذوو الأخلاق العالية والسلوك الحسن على الغضب عليه ، وتتلخص هذه الفعلة بإيوائه فتاة إلى سريره ، وكانت هذه الفتاة جميلة جدا وجاهلة جدا ، وكانت باثمة ورد واسمها (كريستيانا فولبيوس) ، وكانت هذه العلاقة علاقة دعارة استفزازية صارخة ، ومع ذلك فقد جملها بعد عدة سنين علاقة شرعية ، ولكن المجتمع لم يغفر له ولا لها ، ولدت كرستيانا له عدة أطفال ، ولم يبق منهم فى قيد الحياة إلا أوغست الذى وصل إلى منتصف العمر وأصبح ثقلا مرهقا على والديه بسلوكه المتوحش وأخلاقه الفظة وعاداته الذميمة وعربدته الشائنة

كان غوته يشبه فى شبابه « أبولو » أو هرمز (اللهم إلا قصر ساقيه) يشبههما فى رشاقته ، ولكنه اكتسب سمنة عندما بلغ من الكبر عتيا ، وكان ذلك فى إيطاليا وفى بداية القرن الذى لازمه طويلا وأصبح وجهه بدينا كئيبا وخدوده متهدلة فتحول أبولو حتى غدا (جوبتر) بالذات ، رأس رائع وحاجبان بديعان بارزان يعلوهما شعر غزير ملفوف ممتنى به ، وعينان سوداوان يشعان بالروح مظللتان بظلال التعب والسكال ، كما أن لباسه كان يميل بمظهره ، إلى المحافظة ، أما خشونته التى طالما كان يفتخر بالتظاهر والتباهى بها فى شبابه فقد اتخذت شكلا واقعيا فى سيماء الرجل المجوز ، وهكذا اجتمعت فيه خشونة بهكلية وتظاهر رسمى وخيلاء خادعة ، فحرك كلامه إلى حديث رجل متعلم عادى

غوته يصبح أسطورة المظمة

تمتاز الفترة بين السبعين والثمانين من عمر غوته بأنها فترة المظمة الأسطورية ، وبأنه أصبح المثل الحقيق للثقافة الغربية فى أوسع معانيها ، فشرع الناس يحجون إليه من جميع أنحاء العالم ، وكان غوته يكره النظر خلال النظارات ، ولذلك لم يكن يحظى لابسو النظارات بحفاوته ! أما الزائرون الذين زاروا أماكن غريبة أو شاهدوا مناظر بديعة فقد كانوا محط حظوته والتفاته ، وكانت أوامره إليهم تتلخص بـ « قف ! دعنا نقتل هذا الموضوع بحثا » . كانت فيه رغبة ملحة لمرفة كل شىء ، وإرادة للتصرف على جميع الحقائق التى يمتلكها الآخرون ، وإذا ما أظهر أحد الزوار شيئا طريفا أو قدم معلومات ممتعة دعاه للمشاء معه ، فيقدم له ما يشاء من المأكولات والمشروبات على طريقة الملوك ، وربما سمح له بمشاهدة المجموعات النادرة من الزخارف النحاسية والأوسمة والآثار القديمة التى كان يحتفظ بها فى قصره الفخم الذى أهداه إياه الدوق العظيم « قصر فراد بلات » ؛ إن الاحترام الهائل الذى حظى به الرجل كان راجعا بالدرجة الأولى إلى جلال كتاباته المبدعة ، ومما من شك فى أن أسلوب حياته وما كان يهواه من العلوم والهوايات أضفت ستارا شفافا ساحرا على شهرته كحكيم ، ونسجت برودة من العظمة حول شخصه ، بحيث أن كل ذلك كان يبدو جليا فى الرسائل التى كانت تعنون إليه ، فكان مراسلوه الفرنسيون يلقبونه بـ « السيد العظيم » وهو لقب الأمير ، كما أن إنكليزيا كتب إليه بعنوان (إلى صاحب السمو الماطر الأمير غوته فى « وايمر » . وقد علق الرجل الشهم « غوته » على ذلك بقوله « لعل الناس عندما يخاطبونني بهذه اللهجة يقصدون الإمارة الشعرية »

ولما مضى الشاعر العظيم لحال سبيله « كان الرجل الألمانى العادى والذى لم يقرأ شيئا من كتبه يخاطب صاحبه بقوله « هل سمعت أن غوته العظيم مات ؟ » وكثيرا ما أوصلته الأمراض الشديدة إلى حافة القبر ، ومن ذلك أنه فى السنة الثانية والخمسين من عمره هوجم بمرض الحمرة البشرية ونوبة سعال شديدة ، وبعد مرور أربع سنوات انقض عليه مرض النومينيا مع نوبات حادة ، كما أن داء المفاصل ومرض السكلى هاجماه فاضطر إلى الرحيل إلى بوهيميا . وما أن أقبلت سنة ١٨٢٣ ـ وقد بلغ عندها سنه الرابعة والسبعين ـ حتى نجده واهن القوى روحيا وجسديا ، كان ذلك بمثابة رجمة لوداع الحب فى (مارى باد) وعلى الرغم من أن المرض الذى أعقب ذلك كان صعبا وصفه ، ولكنه كان قتالا فى تأثيره

والخلاصة أن علاقته بالحياة أخذت تدريجا تتعرض للخطر ، واشد ما كانت هذه العلاقة موضعا لإيثاره وحبه وغرامه ، فحاول جهد ما استطاع أن يتظاهر بالخشونة كى يلعب دوره الذى قدر له ، دور ابن الأرض القوى ، دور ابن شجرة البلوط ،

وكثيرا ما كان يباهي بذلك . أما أسلوب حياته فكان سمحا ، ولكنه كان أكولا متحمسا ، وكان يعير شهيته التي الكثير من التفاته مع كراهية للكمك والحلويات

إن غوته يمكن أن يعتبر — بمقاييسنا الخاصة — مدمنا للخمر ، لأنه كان يشرب قنينة كاملة من الشراب في العشاء علاوة على عدة أقداح من الشراب الحلو في وقت الغداء ، وكانت عادته ذم الأشخاص الذين يفقدون حيويتهم بسرعة ، وقد أشار إلى ذلك في حديث طريف مع أحد أصدقائه — وقد بلغ آنئذ الحادية والثمانين — في معرض كلامه عن وفاة (سومرنغ) العالم الألماني الشهير في التشريح) فقال : « وسمعت بأن سومرنغ توفي في الخامسة والسبعين من عمره التعس وحسب . إن الناس جبناء فهم لا يملكون القوة الكافية للاحتفاظ بعمر أطول من ذلك ، وعليه فليس لي إلا أن أمدح صديقي « بنتام » الاقتصادي الإنكليزي ، ذلك الراديكالي المجنون لأنه أكبر مني بأسابيع قليلة » فأضاف مشاركه في الحديث بقوله « ياصاحب الفخامة لو كنت ولدت في إنكلترة مثله لأصبحت راديكاليا مشابها له ولانتقدت مصاعب الحكومة كما فعل هو » فما كان من غوته ، وكانت سخنته تشبه سخنة (ميفستوفيليس) إلا أن يجيب « وماذا كنت تظن ؟ لو أنني ولدت في إنكلترة لأصبحت دوقا أو مطرانا دخله ثلاثون ألف جنيه استرليني » إن هذا هو التفاخر بعينه ، والتبجح السافر ، والشعور الراسخ بالتفوق ، إنه كان يعتقد بصورة أسطورية بأنه لا يمكن له إلا أن يولد تحت أحسن الظروف ، وأن الانتقادات لا تصدر إلا من أناس ليسوا حائزين على امتيازات ومواهب خاصة

جوته في أوج قوته

كان غوته معجبا بشعار خاص هو (الجزاء الكامن) في هذا التعبير الذي لم يكن يقف (بصعد) أمام النطاق ، ولكنه كان بدهيا على شفتيه ، ماذا يعني هذا التعبير ؟ إن الجزاء ليس كامنا ، إنه يحقق ويحصل عليه ، وكل شيء كامن ليس فيه للانسان فضل « اللهم إلا إذا فصلنا الكلمة من مضمونها الأخلاق » وهذا ما يقصده هو بالذات . إن هذا التعبير تجن واضح على الأخلاق ولكل نضال واجتهاد . وقد اعتاد غوته أن يقول مفسراً بذلك نظريته « يجب أن يكون الإنسان شيئا كي ينتج شيئا » أو بكلمة أخرى إن ما كان يعنيه لا يخرج عن كون الفضل والكرم في الوجود حاصلا بصفته وجوداً لا بصفته عملا ، وقد عبر عن عقيدته هذه بصور متنوعة ، ولكن الجملة التالية هي أحسن ما أراد أن يقوله « كثيراً ما سمعت الناس يقولون : آه لو أن التفكير لم يكن صعبا لهذه الدرجة ، ولكن التي المزري ، أن أية كمية من التفكير لا تساعد الإنسان على التفكير ، بل يجب أن يكون تفكير الإنسان صحيحا بالطبيعة كي تقف جميع أفكارك الجيدة أمامك ، كما يقف أبناء الله الأحرار فينا دونك بقولهم : نحن ها هنا » . الطبيعة لم يكن غوته — في قلبه — ابن أبيه مطلقا ، ولو أنه لحد ما يعيد بعض الميزات الأبوية ، ولكنه في الحقيقة ابن أمه ، ابن « فراد أجا » — بنت الفندهري — تلك الفتاة ذات المزاج الشفاف ، وأكثر من ذلك كان في الحقيقة ابن الأم الكبيرة ، ابن الطبيعة نفسها . أما فكرته عنها فكانت الكمال بعينه وضرورة الوجود الذي كان متعلقا به أشد التعلق ، ومفهومه له كان لا يتعدى هالا حرا من الأسباب والتصاميم المتداخلة في عالم يعيش فيه الشر جنبا إلى جنب مع الخير ، وقد بين ذلك بصورة جلية بقوله « نحن نتأصل في سبيل جعل الفن كاملا بذاته . أما هم « يعني الأخلاقيين » فيفكرون في التأثير الخارجي ، هذا التفكير الذي لا يهم الفنان الحقيقي كما لا يهم الطبيعة نفسها ، فهي عندما تبدع أسدا أو طائرا لا يهمها أن تلاحظ شيئا من ذلك » . فموهبته المبدعة كانت هبة من الطبيعة التي تحتضن الشر والخير سواء بسواء . فكما أن تأليه الطبيعة كان المنبع الرئيسي لطبيعته ، كذلك كان في نفس الوقت منبعا اللا مبالاته وقلة حماسته وسخريته من الأفكار وكراهيته للتجديد ، الذي كان يعتقد بأنه محطم للحياة نفسها . وهذه هي الأشياء الوحيدة التي كان يعتقد عليها . وعليه فليس غريبا أن نرى مقته للثورة الفرنسية مع أنه بشر بمبادئها ومهد لها بكتاباته ، أما مؤلفه « آلام فرتر » ، الذي أتجه في عنفوان

شبابه ، والذى كانت فيه العاطفية واضحة بارزة ، فقد هز أسس النظام الاجتماعى القديم هزا عنيفا . إن موقفه هذا تجاه الثورة الفرنسية يعيد إلى الذاكرة موقف أرازموس تجاه « الإصلاح الدينى » ، أرازموس ذلك الهولاندى العظيم الذى عمل جهده لتمهيد الاصلاح ، ولكنه تنكر له بتقزز وامتعاض . وقد جمع غوته نفسه هذين الحادثين « القلقين » ببيته المشهور لا فى هذه الأيام ، أيام الاضطرابات ، رفضت الفالسية (١) الثقافة الهادئة ، كما فعلت اللوثرية ذلك فى عهدها » . وهو كذلك ، وكذلك فعل عندما رفض القيمة الكاردينالية التى قدمها البابا إلى (الإنسانى العظيم (٢)) وقد اعتذر عن ذلك بأعذار رقيقة ، فهو لم يرد أن يجعل من نفسه حليفا للنظام القديم الذى انهارت معظم قيمه ، ولانصيرا للنظام الجديد الذى اعتبره غير مهذب ، ومع كل ذلك فسياسة غوته المحافظة كانت مزعزعة لا يركن إليها ولا يعتد بها . ولما أصدر (فريدريك فون كاكدن) سنة ١٧٩٤ بيانه المعروف الداعى إلى توحيد المثقفين الألمان كى يضعوا أقلامهم فى خدمة (الصالح) ـ أى قضية المحافظين ـ ولكى تكون أكثر دقة ، إنشاء اتحاد ألمانى لتخليص البلاد من الفوضى ، وقف غوته صديق كارل أوغست المخلص وشكر البارون لثقته به ، ولكنه اعتذر بقوله (إنه من المتعذر ربط الأمراء والكتاب فى قضية واحدة) ، فانسحابه هذا ، ومحاولته الابتعاد عن كلا الجانبين ، ينطبقان تماما على إرازموس أيضا ، ولكن غوته كان إرازموس ولوثر متقمصين شخصا واحدا ؛ كان اتحادا لطيفا وشيطانيا فى نفس الوقت ، وكان وجوده يمتاز بكونه مثالا وقدوة لغيره . كان مثالا يحتذيه الألمان ، وقد تمكن بنفسه من تحقيق المثالية الألمانية لا بل مثالية الإنسان ، ومع ذلك فقد وقف كثير من معاصريه وقد بلغ بهم الأذى والمرارة حدا جعلهم يكرهونه ، وقد عبر عن ذلك بورن بقوله (إن قوته كانت قوة تخريبية بدلا من أن تكون قوة إنشائية ، وقد كانت عائقا للتقدم وخصوصا جموده السياسى ، وطبيعته الكارهة للفكرة الديمقراطية الوطنية التى كانت تمثل العصر ، فكان يعارض حرية الصحافة وحرية التقدم والديمقراطية والقانون ، وكان يعتقد بأن كل شىء معقول فى ظل الأقاية) . وكان يؤيد الوزير الذى كان يعاند خططه ضد رغبات الشعب ، وكان يشعر شعورا عميقا بالغرور الإنسانى ، وقد اعترف يوما ، بأن مجرد النظر إلى وجهه يكفى للتخلص من الكآبة ، ولكنه لم يكن يؤمن إلا إيمانا ضئيلا بالإنسانية ومستقبلها الحسن ، فلا يمكن تعليم الناس العقل والعدالة ، ولا يمكن إنهاء الحروب وإراقة الدماء والتذبذب فى الشؤون العامة

(الكلام بقية) بقلم — يوسف شبر المسيح ثروت

(١) الفالسية هى الفرنسية نسبة إلى الفول : أجداد الفرنسيين

(٢) الإنسانية (humanism) : مبدأ أدبى فى عهد الإصلاح وكانت الغاية منه نشر الفنون والآداب اليونانية والرومانية

ظهرت الطبعة الرابعة الجديدة

للمجلد الاول من كتاب

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

طبع طبعاً أنيقاً على ورق صقيل وقد بلغت عدد صفحاته ثمانمائة صفحة ونيفاً . وهو يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكتبات وثمنه أربعون قرشاً عدا أجرة البريد